٩ ـ الفـــن

للكاتب الفرنسي بول هيرفيو

بقلم الدكتور محمد بهجت

الفصل السادس — جمال النساء

كان ذلك المنزل القديم الجميل المعروف باسم «أوتيل دى بيرون» الواقع فى شارع هادئ على الضفة اليسرى لنهر السين بباريس — كان إلى عهد قريب مقراً لدير « القلب المقدس » ولكن بعد أن ألغيت الرهبنة النسوية شغله بضعة مستأجرين من بينهم رودان .

وللفنان كما رأينا مراسم أخرى فى ميدون ، وفى مستودع الرخام بباريس ؛ غير أن له ولعاً خاصاً بهذا المنزل الذى بنى بالبلدة فى القرن الثامن عشر لأسرة ذات سطوة وجاه . وهو مسكن جميل تشتهيه نفس كل فنان ، فغرفه الكبيرة عالية ، بجوائطها حشوات بيض يطيف بها حلى بارزة مموهة بالزخرف واللون الأبيض . أما الغرفة التى اختارها رودان ليعمل فيها فستديرة تطل نوافذها الفرنسية العالية على حديقة غناء أهملت وطال عليها الإهمال . ومع ذلك فلا زال من المستطاع متابعة صفوف الأشجار التى تقوم على حوافى الطرقات والممرات المشوشبة ورؤية بعض النباتات الخضراء القائمة على العرائش وقد ركبتها أنجم متسلقة عجيبة . وفى كل ربيع تتفتح الأزهار الناضرة من بين الحشائش الكثة التى تملأ حاشية الحديقة . ولا ينسى لشىء أن يبعث فى النفس كآبة حلوة أكثر من هذا المنظر الذى يتلاشى فيه عمل الإنسان ويمحى رويداً رويداً بيد الطبيعة القاهرة .

يقضى رودان أكثر وقته فى الرسم بذلك المنزل . ويحب أن يخلو إلى نفسه فى هذا المنزل الهادىء ، ويستودع الورق أشكالا لا عداد لها من الأوضاع الجميلة التى تتخذها المثل البشرية أمام عينيه .

وفى مساء أحد الأيام كنت أنظر معه فى طائفة من تلك الرسوم ، وكنت أبدى إعجابى بتلك الخطوط المؤتلفة المتزنة التى استطاع بها أن يبرز كل انسجام الجسم الإنسانى على الورق . أما الخطوط التى عملت بجرة واحدة قوية من جرات القلم فتبدى حدة الحركات أو فتورها وسكونها . وأما جمال التمثيل فيظهر بقليل من الظل يحدثه بإبهامه . وكان يبدو عليه وهو يدرس الرسوم كأنه يرجع بذاكرته مرة أخرى إلى المثل الحية التى أخذ عنها تلك الرسوم وعند ذلك صاح :

« آه ! يا لجمال أكتاف هذه المرأة ! يا لها من متعة عظيمة ! وما أجمله من منحنى كامل الحسن ! إن رسمى أثقل مما يجب . لقد حاولت كثيراً ولكن ! ! انظر . ها هى ذى محاولة أخرى لنفس المرأة . إنها أقرب شبهاً بها . ومع ذلك !

« ثم انظر إلى نحر هذه ، وإلى ملاحة هذا الخط الممتلىء المحبوب . إن له رشاقة لا تشوبها شائبة .

وهنا سألته :

« يا أستاذ . أمن السهل العثور على مُثُل جميلة ؟ » فقال : « نعم . » فقلت : « إذاً فالجمال ليس نادراً فى فرنسا . » فقال : « كلا . إنى أقرر لك ذلك . » فقلت : « ولكن خبرنى . ألا تظن أن الجمال القديم يفوق جمالنا الحديث ، وأن النساء العصريات يقصرن عن أن يدانين أمثال أولئك اللاتى أخذ عنهن فيدياس » فأجاب : « كلا ، ألبتة . » فقلت : « ومع هذا فجمال وكمال تماثيل زهرات الإغريق ... » فقال : « كان لفنانى ذلك العصر أعين يرون بها . أما فنانونا المعاصرون فعمى لا يبصرون . وهذا كل ما هنالك من فارق . كانت نساء الإغريق جميلات ، ولكن ترعرع جمالهن قبل كل شىء فى أذهان المثالين الذين نحتوهن . توجد اليوم نساء مثلهن تماما وعلى الأخص بجنوب أوروبا . فمثلا ينتمى الايطاليون المحدثون إلى نفس النوع الذى انتمت إليه مُثُل فيدياس . وأخص ما يميز هذا النوع هو اتساع الأكتاف والأرداف اتساعا متساويا » فقلت : « ولكن ألم تؤثر غزوة البرابرة فى مستوى الجمال القديم بما نجم عنها من اختلاط فى الجنس ؟ » فقال : « كلا . حتى إذا افترضنا أن البرابرة كانوا أقل جمالا وتناسباً من جنس البحر المتوسط — وهذا محتمل — أقول حتى إذا افترضنا هذا فإن

الزمن قد محا. فاما كل عيب نشأ عن امتزاج الدم ، وأعاد الانسجام إلى اجسام النوع القديم مرة أخرى . وإذا ما امتزج الجميل بالقبيح فأغلب الظن أن الغلبة تكون للجميل فى نهاية . إن الطبيعة تتجه دائماً أبداً — بقانون سماوى — وجهة الأحسن والأصلح ، وتنحو ناحية الكمال بلا توقف . ويوجد بجانب نوع البحر المتوسط نوع الشمال الذى تنتمى إليه بعض نساء فرنسا ونساء العنصر الجرمانى والسلافى واللتى نشاهد فيه الأرداف وافية التكوين والأكتاف ضيقة نوعا . إنه من نوع ما نشاهد فى حوريات جان جوجون (Jean Goujon) ، وفى زهرة وآلو التى بلوحته السماة « حكم باريس » ، وفى « ديانا » لهودون (Houdon) . ونرى فى هذا النوع أيضاً أن الصدر مرتفع بينهما نراه على نقيض ذلك مستويا فى النوع القديم ونوع البحر المتوسط . والحق أقول إن لكل نوع أو جنس من الأجناس جماله الخاص . والمسألة هى اكتشاف هذا الجمال . لقد رسمت بسرور شديد راقصات كمبوديا[1] اللاتى حضرن مع مليكهن أخيراً إلى باريس ؛ إذ أن للاشارات والحركات الصغيرة الرشيقة التى تصدر عن أعضائهن الجميلة جمالا عجيباً مدهشاً .

ولقد عملت عدة دراسات عن الراقصة اليابانية هانا كو (Hanako) ذات العضلات القوية التى تبرز بروزاً واضحاً كما هو الحال فى نوع الكلاب المسمى (فوكس تيريور) . أما أربطة تلك العضلات فنامية لحد أن لعاقدها ثخانة توازى ثخانة الأعضاء نفسها. إنها لمن القوة بحيث تستطيع الوقوف على ساق واحدة لأى وقت تشاء ، بينما تصنع بالأخرى زاوية قائمة مع جسمها فتبدو كأنها شجرة غرست فى الأرض غرساً . ويختلف التشريح فى جسم تلك الراقصة عما هو فى أختها النربية ، ولكنه مع ذلك جميل كل الجمال فى قوته الخاصة . »

وبعد هنيهة من الصمت عاد إلى الفكرة المحببة إليه قائلا :

« وقصارى القول يوجد الجمال فى كل مكان . وليس هو الذى تفتقر إليه أعيننا ، بل إن أعيننا هى التى تقصر عن إدراكه ورؤيته . فالجمال سجية وتعبير . هذا ولا يوجد شىء فى الطبيعة له من السجية والتعبير أكثر مما للجسم الإنسانى؛ فهو يبعث شتى الأخيلة المختلفة بقوته وجماله . فأنا نراه يشبه الزهرة بقوامه الماثل الذى يكون بمثابة الساق منها ، وبالكتفين والرأس وجزالة الشعر ، وكلها بمثابة كأس الزهرة ونضارته . ونراه أنا آخر كالنبت المتسلق اللدن أو كالساق الفارعة المعتدلة يقول أوليس (Ulysses) لنوسيكا (Nausicaa) « كأنى حينما أنظر إليك أرى نخلة باسقة بجزيرة ديلوس قريباً من مذبح أبوللو وقد نما فرعها الأوحد من الأرض إلى السماء » . ثم إذا انحنى الجسم الإنسانى قليلا إلى الوراء كان كاللولب ، أو كقوس جميلة يسدد عليها إيروس سهامه الخفية ، وفى أحوال أخرى يبدو كالقارورة ؛ ولطالما أحببت مثالا أن تجلس على الأرض بحيث تجعل ظهرها قبالتى ، وذراعيها وساقيها متجمعة أمامها . ففى ذلك الوضع يبدو الظهر الذى يستدق قليلا نحو الوسط ثم يستعرض مرة أخرى عند الأرداف كأنه زهرية بديعة الشكل والتكوين .

وفوق كل هذا وذاك فالجسم الإنسانى مرآة النفس ، ومن النفس يستمد أعظم جماله . «يالحم المرأة ، يا أعجوبة العجائب ، يا أعلى مراتب الطين وأسماها ! يا أجل مستقر للروح من الحما المسنون ! يا أيها الظرف المادى الذى تضيء فيه الروح كما لو كانت تضيء فى أكفانها . أيها الصلصال الذى يرى المرء فيه انطباع أصابع الخالق للصور ! أيها الطين الجليل الذى يستطير القبلات ويستبى قلوب الرجال ! بلغت من القدسية بحيث لا يُدرى إذا كانت الشهوات فيضاً آلهيا ، طالما كان الحب مسيطراً قاهرا والنفس منجذبة منقادة ، بلغت من القدسية بحيث لا يسع المرء عندما تتأجج عواطفه وهو يحتضن الجمال إلا أن يتوهم أنه يعانق الإله[1] »

«أى والله لقد أصاب فكتور هوجو كبد الحقيقة . إن أكثر ما نعشقه من الجسم الإنسانى لا يقتصر على الظرف الخارجى الجميل ، وإنما هو القبس الداخلى الذى يخيل الينا أنه يشتعل فى جوفه ويضيئه .

دكتور محمد بهجت

قسم اليابانيين

(١) جزء من بلاد الهند الصينية الفرنسية .

(١) من أبيات لفكتور هوجو